ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: www.jtuh.org/

The Place among the Poets of the Elegies in Ibn Salam Al-Jumahi's Layers of the Outstanding Poets

Duha Mounir Taha

Nargis Khalaf Asaad

Hassan Ismail Khalaf

College of Education, Tikrit University

* *Corresponding author: E-mail* :
dwha.m.taha@gmail.com

Keywords:
place,
poets of the elegies,
Ibn Salam,
Al-Aleef,
Al-Maadi.

A R T I C L E I N F O

Article history:

Received	15 July 2023
Received in revised form	25 July 2023
Accepted	17 Aug 2023
Final Proofreading	4 June 2024
Available online	4 June 2024

E-mail t-jtuh@tu.edu.iq

©THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY LICENSE
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

A B S T R A C T

This research aims to uncover the symbols and connotations associated with a particular place. By doing so, it can enhance the communication between the reader and the text. Additionally, it sheds light on the significance of the elements involved in constructing literary and poetic texts. The ancient era is a magnet for various textual elements, serving as a central hub for exploring the artistic and aesthetic values found in literary works. To ensure accuracy and depth, it is important to follow a set of methodological steps: Initially, the research attempted to describe the place using literary language. Subsequently, it delved into the psychological aspects of the place, examining its familiarity and hostility.

© 2024 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://doi.org/10.25130/jtuh.31.6.2024.01

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities

المكان عند شعراء طبقة المراثي في كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (ت232هـ)

ضحى منير طه/ طالب دارسات عليا

نرجس خلف أسعد /كلية التربية، جامعة تكريت

حسن إسماعيل خلف/ كلية التربية، جامعة تكريت

الخلاصة:

بعد استقراء مستفيض لشعر شعراء طبقة المراثي في كتاب طبقات فحول الشعراء لأبن سلام الجمحي ، يسعى هذا المقال إلى الكشف عمَّا يحمله المكان من رموز ودلالات، يمكنها المساهمة في

علمية التواصل بين القارئ والنص، وكذلك إيضاح أهمية العنصر المشارك في عملية بناء النص الأدبي عامة والنص الشعري القديم خاصة ، تنجذب نحوه الكثير من العناصر النصية ، ويعد بؤرة تتبع منها القيم الفنية والجمالية التي تنطوي عليها الأعمال الأدبية، يعد المكان الملجأ الأول للإنسان الذي تتسع مداراته، وهو الركن الرئيس الذي يمارس فيه الإنسان تكوينه الحياتي الأول، وقبل أن تتفتح مداركه الحياتية إلى العالم الأوسع، ليبدأ بعد ذلك بتعيين أبعاده المكانية من خلال تجربته الطويلة التي مرَّ بها في مسيرته الحياتية، فهو يمثل الحيز الأكبر في حياة الإنسان، ففيه يعيش ويحتمي، وإليه يعود بعد الموت، فنحن لا يمكن أن نتصور وجودنا بلا مكان، فما من شاعر أو قاص أو روائي إلا وأدى المكان دوراً بارزاً ، وقد استدعى ذلك تتبع الخطوات المنهجية التالية:

في البداية حاولنا تقديم المكان في الاصطلاح الأدبي، ثم تناولنا في البحث المكان النفسي وهو الأليف والمعادي، وأهم النتائج، فضلاً عن قائمة المصادر والمراجع.

يطيب لي أن أتقدَّم بفائق الشكر والتقدير إلى أساتذتي الأفاضل في قسم اللغة العربية، كلية التربية في جامعة تكريت، الذين رسموا لي معالم نيرة في مسيرتي العلمية وانهلوني من خزين علمهم، فجزاهم الله عني خير الجزاء.

.

الكلمات المفتاحية: المكان، شعراء طبقة المراثي، فحول الشعراء، ابن سلام، الأليف، المعادي.

المقدمة

يمتلك المكان دوراً أساسياً في حياة الإنسان منذ القدم، ترى أثره في تشكيل وجدانه على نحو مخصوص، وبصمت في حياتهم بسمات خاصَّة، وتاركاً لنا آثارها في تحركاته وسكناته، وإن هذا التأثير تجلَّى في الأدباء على مر العصور، وذلك بحكم أنهم يمتلكون المقدرة على إعادة انتاجه وقدراتهم على اكسابه امكانية التجدد والتواصل (ينظر: د. باديس فوغالي، 2007م، ص 172-173)، فالمكان في مفهومه الأدبي ((ينتمي إلى عالم الأفكار أكثر من انتمائه إلى عالم المادة، لأنه وليد الشعور والفكر، ولذلك فهو لا يقدَّم بشكل تقريري تصويري مباشر، فهذا الأسلوب أقرب إلى الرسم والتصوير، على أن ذلك لا يعني عزل المكان الأدبي عن المكان المادي، بل يعد المكان الأدبي انعكاساً للواقع في مخيلة الأديب التي يسعى إلى اخضاع المكان في التشكيل الأدبي)) (العامري، 2019م، ص 21).

إذاً فالمكان في العمل الفني((شخصية متماسكة ومسافة مقاسة بالكلمات ورواية لأمور غائرة في الذات الاجتماعية، ولذلك لا يصبح غطاءً خارجياً أو شيئاً ثانوياً، بل هو الوعاء الذي تزاد قيمته كلما كان متداخلاً بالعمل الفني)) (ياسر النصير، 1986م، ص 17)، فالقصائد التي تُحسن استخدام المكان

إنّما تشمل جزءاً من تاريخية الزمن، وبعكسه سيكون المكان عند الشاعر عادياً ومجرداً من معناه الفكري والفلسفي، إذاً هو ((الجغرافية الخلاقة في العمل الفني)) (المرجع السابق، ص 17-18).

وإن أهم ما يميز المكان شعرياً ((أنه يقع بين زاويتين: هما زاوية التشكيل الشعري، وزاوية التأويل، ففي الزاوية الأولى تتشكل وفقاً لرؤية شعرية غالباً من يتحكم فيها الخيال ليمنحها بُعداً تأثيرياً جمالياً، وفي ضمن الزاوية الثانية يكون لإحساس المتلقي ورؤيته الذوقية أو النقدية أثر في حياته وفي تجربة الشاعر، وبهذا يكون المكان المدمج في بنية القصيدة منفتحاً على عالم التخيل عند المتلقي)) (د. علي متعب جاسم و د.منى شفيق، 2009م، ص 4)، فالشاعر يحمل خيال المتلقي إلى الأماكن التي يذكرها في شعره، والبارعون منهم من يوصل ذات الشاعر والأحاسيس التي يشعر بها إلى المتلقي، وكأنَّه هو من مرَّ بهذه التجربة. يتخذ حضور المكان في النص الشعري أشكالاً مختلفة فأنها تتفاوت فنياً وفقاً لرؤية الشاعر، فإن تلك الرؤية وذلك الوعي أديا بنا الى تصنيف المكان الى مبحثين وهي المكان الأليف والمكان المعادي

يتجه الشاعر إلى المكان وفقاً لإحساسه به، في ظل استشعار الإحساس والعواطف النفسية، وهو في تعامله مع المكان يشعر إمَّا باللَّذة والسعادة أو بالألم والشقاء، وتعكس مظاهر الألفة والوحشة، ومن هنا فإنَّ هوية المكان من حيث أنواعه تتحدد حسب الذات بمحيطها، فإنَّ إحساس الإنسان بألفة المكان أو معاديته تخضع للوضع الفكري والنفسي الذي يعاني منه الإنسان، وزيادة على ذلك فإنَّ الموقف من المكان يأتي نتيجة ما يثيره هذا المكان من أحاسيس ومشاعر في وعي الشعراء، لأنهم أكثر حساسية تجاه البيئة المحيطة بهم (ينظر: العامري، 2019م، ص 31).

المبحث الأول: المكان الأليف

يكتسب المكان صفة الألفة من خلال انعكاسه في النفس، فإنه يبتعد قليلاً أو كثيراً عن طبيعته المادية، ليصبغ بصبغة شعورية جاءت نتيجة لما يوفره من الحماية والدفء، وما يتركه في النفس من أثر تظل ذكراه راسخة لا يمكن محوها (المصدر السابق، ص 51)، ويكون ذلك ((طبقاً لحاجته، فهو ينتعش في بعض الأمكنة ويذبل في بعضها، وقد تكون نفس الأماكن جاذبة او طاردة، فقد تكون الأماكن الضيقة المغلقة مرفوضة، لأنها صعبة الولوج، وقد تكون مطلوبة؛ لأنها تمثل الملجأ والحماية التي يأوي إليها الإنسان بعيداً عن صخب الحياة)) (يوري لوتمان، 1968م، ص 83)، وتشكل إيجابية المكان مستودع للذكريات الجميلة بالنسبة للشاعر، لأنها تكون مشحونة بشحنات عاطفية، ((فالمكان هو الذي يحمل صفة الألفة، وانبعاث الدفء العاطفي، ويسعى لإبراز الحماية والطمأنينة في فضائه، لهذا فالشخصية تسعى إليه بإرادتها دون قيد أو ضغط يقع عليها، لأن اختيار المكان يكون بالإرادة)) (مهدي العبيدي، 2011م، ص 47). والمكان الأليف هو ملتقى الأحبة وهناءة الطفولة الأولى، ويشعر الإنسان بدفء

العلاقة الحميمة، ولهذا فإنه حسب باشلار مكان المعيشة الذي يقترن بالحنان والدفء، والشعور بأن هناك حماية للمكان من الخارج المعادي وتهديداته، ويمنح لهذا المكان الحلم والسعادة والتذكر، فهو ((المناخ الذي يعيش الإنسان المحمي في داخله)) (غاستون باشلار، 1984م، ص38) ، فمكان الألفة هو المكان الذي يحنون إليه الشعراء دوماً، لأنه يبعدهم عن واقعهم الأليم إلى واقع يجعلهم يشعرون بالهدوء والاستقرار النفسي، فـ((تتعقد علاقات الشخصيات بمنازلها وتتنوع بتنوع الأزمنة الذاتية، لذا فإن الغالب على علاقات الشخصيات بمنازلها صفة التذبذب التي تتراوح بين نفور وحب، وبين الاجتماع بها والهروب منها، ففي لحظات السعادة تتآلف الشخصيات بالأماكن، وفي لحظات البؤس تضطر إلى مغادرتها والتنكر لها)) (د. إبراهيم جنداري، 2003م، ص 38)، ويميز باشلار بين الأمكنة الإيجابية والأمكنة السلبية، فالأمكنة الإيجابية هي التي تحب وهي أمكنة مرغوب فيها، وترتبط ((بقيمة الحماية التي يمتلكها المكان، والتي يمكن أن تكون قيمة إيجابية، وقيم متخيلة، وسرعان ما تصبح هي القيم المسيطرة، إن المكان الذي ينجذب نحوه هو الخيال لا يمكن أن يبقى مكاناً لامبالياً، ذا أبعاد هندسية فحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تحيز، إننا ننجذب نحوه لأنه يكشف لنا الوجود في حدود تتسم بالحماية)) (غاستون باشلار، 1984م، ص 31).

وقد كشف نتاج الشعراء بذكر الأماكن الإيجابية الأليفة، لِما لها من دفء وحميمية تشد الشاعر إليها، فإنها تدفعه إلى تذكر الأماكن التي يشعر فيها بالراحة النفسية ، وفي لحظات أخرى يعيشها معايشة آنية، فيشعر عن إحساس مفعم بالسعادة والألفة.

إن علاقة الشاعر بالطبيعة علاقة حميمة، إذ ((تثير الطبيعة في نفسه معاني الهوى، وتحرّك لواعجه، وتصل بينه وبين الحبيبة، فإذا عادت الرياح إليه من أمكنة الأحبة استراح إليها واطمأنت نفسه)) (د. سيد نوفل، 1945م، ص 265)، وإن توظيف الطبيعة في الشعر الجاهلي يعتمد على مدى وعي الشاعر ورويته وفهمه لها، وقد اختلف الشعراء في تناول دلالة المكان الطبيعي في أشعارهم، فتعددت المحطات المكانية التي أزالت الغموض عن تلك الرؤى التي تنبثق من هذا السياق، فصرف ((شعر الطبيعة على الشكل الذي أوحت به البيئة البدوية، وقد تهيأ للشاعر الجاهلي من هذا الفن حظ وافر، فأخذ يتأمل الطبيعة ويبثها في شعره، ويتفنن بها، ويصوّرها تارة ببصره وأخرى بقلبه)) (جودت الركابي، 1966م، ص 125)، ففي هذا البيت ترى متمم كيف يفخر بكرم أخيه، إذ يقول (ابتسام مرهون الصفار، 1968م، ص 107):

لَبِيبٌ أَعَانَ اللُّبَ مِنهُ سَمَاحَةٌ خَصِيبٌ إذا ما رَاكِبُ الجَدْبِ أَوْضَعَا

إن المتأمل في هذا البيت يرى أن متمم يفخر بكرم أخيه، ويصفه برزانة العقل، وكثرة العطاء وقت الحاجة، إذ إنه أظهر (اللب والسماحة) بطريقة الاستعارة المكنية، لأنَّها تدل على أهم أوصاف الإنسان،

هي العقل والسماحة، فإنَّ هذه الصورة الحسية تنبض بالحياة والحركة، فقد وظَّف الشاعر المكان في (خصيب)، فإنه استعار الخصوبة دلالة على العطاء؛ ليبيّن أن أخيه صاحب كرم وعطاء، حاله حال دوام النبات في الأرض الخصبة، وهنا جاءت استعارته ليدل على أن مالك أصبح أرضاً خصبة نقية سخية تنبت المروءة والكرم، فشبَّهه إذ نزل على أرض مجدبة أصبحت هذه الأرض مثمرة ما دام هو فيها، فإنَّ هذا المكان أصبح إيجابياً بوجود مالك فيه، فإن إضفاء صفة الألفة على المكان الطبيعي يعطي للنص الشعري مساحة انتمائية بينه وبين المتلقي.

وإن هذه الإيماءات ساعدت على إيصال إيجابية المكان للمتلقي بصورة كاملة، ويواصل الشاعر (إذا ما رَاكِبُ الجَدْبِ أَوْضَعَا) هنا استعارة مكنية توحي بأن أخاه كان صاحب كرم، ومقصد لذوي حاجة، وإنهم يأتون إليه من كل مكان، فذكر الشاعر الخصب ثم صوَّر الجدب على شكل دابة تنطلق بصاحبها اتجاه الأرض التي ترى فيها عشب ونبات، وإن النهاية لهذه المرحلة الشاقة إلى مالك توحي بالارتياح النفسي والجسدي لهذا المسافر، بعد مغادرته لمكان الجدب، ووصل إلى مكان فيه شخصاً معطاءً وكريماً، فلذلك وظَّف الشاعر مكان (خصيب–جدب) طباقاً لأجل إبراز المعنى وتعميق الإحساس به، التي تفيد المبالغة في كرمه، ودائماً يسعى الشعراء إلى إظهار ارتباطهم بالمكان، لكونهم أكثر الناس حساسية اتجاه ما يحيط بهم، فإنَّ المكان من أكثر الأشياء إثارة لشعور إما بالمواطنة أو شعور بالعداوة، حتى ليحسب المكان الذي لا يتم حدوث شيء بدونه.

إنَّ شعر الطبيعة يمتاز بالحيوية والديمومة التي تعطي الشاعر الحرية الكاملة في وصف الأماكن، فالشاعر استدعى الكثير من رموز الطبيعة في شعره، لأن لها إيحاءاتها وتأثيراتها على المكان، فتمده بمظاهر الجمال والألفة، فهي ((تمثل الملجأ الوجداني للشاعر والملاذ الفكري، فقد كوَّن منها جسراً لأحاسيسه ومشاعره، فكانت تُمثل انطلاقته الحقيقية للتعبير عن مكنون أحاسيسه التي لا يعبر عنها إلاَّ عن طريق استنطاق ما كان ساكناً وإثارة ما كان متحركاً)) (ميثم علي العباد، 2012م، ص 72)، والمكان الأليف أخذ حيزاً واسعاً عند الخنساء، إذ تقول (أحمد بن يحيى، 1988م، ص201–203):

يَحمِـي لَهَـا ذات أجنـابٍ فعنْفـورةٍ فمحـدث الأتـم فالصَـرَّداء أحيَانـاً

فهُـنَّ قُـبٌّ كَحَيَّـاتِ الأَبـاءِ بِـهِ يُجـذِينَ نيًّـا ولا يُجـذِينَ قِردانَـا*

ذكرت الشاعرة مواضع (ذات أجناب، فعنفورة، محدث، الأتم، الصرداء)، إذ كان صخر يحمي هذه الأماكن، وكانت هذه الأمكنة يكثر فيها الزرع أيام الربيع، وكانت الإبل يظهر في سنامها شحم بسبب الربيع، (ولا يجذين قِرداناً) أي: لا يوجد فيها قراد، وذلك من طيب مكانها وحسنها، لأن القردان تكون في بلد وخم، وهذا يدل على المكان الإيجابي الذي نبت فيها الزرع والقصب، فأصبحت هذه الإبل سمينة تحمل شحماً بسبب هذا المكان، فإنَّ إضفاء صفة الألفة على المكان يعطي للنص الشعري مساحة

انتمائية بينه وبين المتلقي، فإن هذه المساحة ساعدت على إيصال الإيجابية وألفة المكان للمتلقي بصورة كاملة، ((فعناصر الطبيعة تسهم في تحديد خصوبة المكان وإن ذهابها يعني بالتالي فقدان المكان لهويته، حتى لو بقي الإنسان ملتصقاً به)) (عبد الرحمن منيف،1991م، ص 32)، وإن البيئة الجاهلية أثَّرت بمظاهرها المختلفة في الشاعر وحرَّكت مشاعره، فأصبح لسانه حاملاً شتى ألوان الخصوصية والمحلية التي ظهرت في عصره.

وتُعدّ المساكن والأحياء قيمة مكانية عالية، وقد ظلَّ الشعراء يترصدونها ويصفونها بأنها أماكن أليفة يلجؤون إليها، وتُعدُّ هذه المساكن الطبيعية التي أوجدها الإنسان لغرض العيش الكريم، فإن هذه المساكن تساعدهم وتحميهم من الظروف البيئية، فالأماكن لها خصوصيات متآلفة ومتقاربة، إذ تجمع فيها الكثير من الذكريات، وإن الإنسان يشعر بالراحة والانتماء، فقد عبَّر عنها الدكتور نوري حمودي القيسي في كتابه (الطبيعة في الشعر الجاهلي)، إذ يقول: ((لقد تحدث الشاعر الجاهلي عن كل شيء أحسَّ به وشاهده، وكانت أوصافه مستمدة من هذه المظاهر التي وقعت تحت نظره، وكان شعره مستمداً من صميم البيئة التي وجد فيها، ومن النزوع الطبيعي للتعبير عن الوجود الحي الذي كان يعيشه، وأغالي إذا قلت إن الشعر الجاهلي قد صوَّر الحياة الجاهلية تصويراً صادقاً)) (نوري حمودي القيسي، 1970م، ص 308)، فإن الطلل ضرب من الحنين إلى الماضي والنزوع إليه، لإثارة العاطفة ولإشاعة الفرحة في عالم الحاضر (ينظر: حسين عطوان، 1970م، ص 239).

إذ تعد الديار الأليفة من العناصر المهمة في تكوين النص الشعري، لأنه يساهم في خلق جو شعري مميز يصبو إليه الشاعر، فالمسكن الأليف يجعل الشاعر يحسُّ بالأمان، ويشعر بالراحة والاستقرار، ((ومن هنا نجد ان الأماكن التي ارتبطت بلحظات السعادة حيَّة في داخلنا حتى بعد ان نفقدها إلى الأبد وهي تلح علينا لأنها تعاود الحياة وكأنَّها تتوقع منا أن تمنحها تكملة لما ينقصها من الحياة)) (غاستون بلاشار، 1984م، ص74)، فإن هذه الوسائل تجعل من الشاعر مبدعاً في مجاله الشعري. وقد كان كعب يستمد محفزاته من موجودات المكان، فهي تهيج أحاسيسه ومشاعره اتجاه تلك الأماكن، فإن أبا المغوار يحمل صفة الألفة التي تعبر عن كرم صاحبها، إذ يقول (عبد الرحمن الوصيفي، 1998م، ص 78–79، إذ يحمل نفس السخاء الكرم في بيته):

أَخُو شَتَواتٍ يَعْلَمُ الضَّيْفُ أَنَّهُ سَيَكْثُرُ مَا فِي قِدْرِهِ وَيَطِيبُ

إِذَا حَلَّ لَمْ يُقْصِ الْمَحِلَّةَ بَيْتَهُ وَلَكِنَّهُ الأَدْنَى بِحَيْثُ تَنُوبُ

حَبِيبٌ إِلَى الْزُّوَّارِ غِشْيَانُ بَيْتَهُ جَمِيلُ الْمُحَيَّا شَبَّ وَهْوَ أَدِيبُ

نلاحظ هنا توظيف الشاعرة للمكان (البيت)، وهو مكان محدود لبيان سعة كرمه وعطائه، فإنه لم يتركه محدوداً وإنَّما جعله فضاءً واسعاً لدلالة إيمائية على امتداد سعة العطاء والجود، فالشاعر ربط

المكان بغرض الفخر، وكيف كان أبو المغوار شديد الكرم في سنوات القحط، وإن الضيوف تعودوا على سخائه وكرمه، فأحبُّوا زيارته لما يلقوه عنده من حسن القِرى، فقد كان الكرم من أجلِّ الصفات التي حرص عليها العرب، فلم ((تكن خصلة عندهم تفوق خصلة الكرم، وقد بعثتها فيهم الصحراء القاسية وما فيها من جدب وإمحال، فكان الغنيُّ بينهم يفضل على الفقير، وكثيراً ما كان يذبح إبله في سنين القحط يطعمها عشيرته، كما يذبحها لضيفانه الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء عليه)) (د. شوقي ضيف، 1990م، ص 68)، فإنَّ أُلفة المكان في النص تنم عن نفسية الشاعر اتجاه بيته، فالإنسان بطبيعته ينجذب نحو المكان الذي يشعر فيه بالراحة، فإنَّ ((العلاقة بين الإنسان والمكان تذهب في الاتجاه النفسي مثل الاتجاه الحسي، وتتسم تبعاً لذلك ببعض التجاذب والتفاعل بين الداخل والخارج، فالعلاقة النفسية الناتجة عن ارتباط الشاعر بالمكان تخلق جواً حسياً واضحاً في النص لا يكاد يفارق خيال الشاعر)) (أحمد سالم عبيد، 2018م، ص943)، فالمكان الإيجابي من العناصر المهمة في تكوين النص لكونه يساهم في خلق جو شعري يصبو إليه الشاعر، فالمسكن الأليف هو الذي يشعر من يزوره بالراحة والاستقرار، لذا يعد مكاناً إيجابياً مريحاً للنفس.

ونجد في شعر كعب أن المكان الإيجابي أكتسب أهميته ودلالاته نتيجة كرم وشهامة أبي المغوار، فعمَّقت إحساسه بالمكان، ((فالمكان الذي نحيا فيه ليس سلبياً ولا صامتاً، ولكنه لحمل دلالة تحلل جميع الأبعاد والاحداثيات والأركان والظواهر الطبيعية والأشياء التي تحيط بنا)) (سيزا قاسم، 2013م، ص 50).

المبحث الثاني: المكان المعادي

تتخذ علاقة الإنسان بالمكان من خلال ما يجده من فرح أو حزن أو رفض وعداء، فإنَّ المكان المعادي يكسب صفات العداء، وذلك من خلال التجارب المؤلمة التي عاشها الإنسان، ولا يمكن أن يتصف هذا المكان بصبغة العداء بشكل مطلق، وممكن أن يكون معادياً موحشاً عند شخص معين، وممكن أن يكون أليفاً عند شخص آخر، لأن تغير طبيعة المكان يؤدي إلى تغير مشاعر الإنسان وأحاسيسه، فالمكان على وفق هذا المبدأ لا يعد مساحة، فحسب بل هو حالة نفسية.

ويعد القبر من الأماكن المرفوضة التي نشعر فيها بعدم الراحة والطمأنينة، لأنه يثير بداخلنا ذكريات من فقدناهم من الأحبة والأهل، لذا يعد ذكر دلالة القبر في أشعار طبقة المراثي، حيث رسم الشعراء صوراً مختلفة لقبور أحبتهم الذين فقدوهم، إذ ((تفتحت عيون الشعراء على هذه الدنيا وحاوروها وأمعنوا النظر في مظاهرها، كلما تطلعوا إلى المستقبل، قابلتهم صور التحول الى الفناء، وظل القبر أحد هذه المظاهر الشاخصة، التي تدل على ذلك وكان مظهراً محدداً ومختصراً للفناء... فالقبر تدوين لحادثة ووقعت في زمن ما وانتهت بالموت، وقد كان القبر هاجساً في نفوس شعراء تلك الحقبة من الزمن، وشغل

بالهم وأدركوا النهاية الحتمية لكل إنسان)) (حمادة تركي زعيتر، 2013م، ص 244-245)، والقبر حمل كل معاني التغيب والفناء، فهو النتيجة الحتمية لكل إنسان، فكان القبر يمتاز بعدم الألفة، لأنه يثير في النفس الإنسانية عواطف القلق والخوف، فـ((القلق العام يتركز حول موضوعات متصلة بالموت والاحتضار، استجابة انفعالية تتضمن مشاعر ذاتية من عدم السرور، والانشغال المتعمد على تأمل او توقع أي مظهر من المظاهر العديدة المرتبطة بالموت)) (د. أحمد محمد عبد الخالق، 1987م، ص 38). قال متمم في رثاء أخيه (ابتسام مرهون الصفار، 1968م، ص 125):

لقد لامني عند القبور على البكا رَفِيقِي لِتَذْرافِ الدُّمُوعِ السّوافِكِ

أمِن أجلِ قبرٍ بالملا أنت نائحٌ على كلّ قبرٍ أو على كلّ هالك

فقالَ: أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ اللِّوَى فالدِّكادِكِ

فقلتُ له: إن الشجا يبعثُ الشجا فدعني، فهذا كُلُّهُ قَبْرُ مالِكِ

ويقصد الشاعر هنا عندما قدم إلى العراق فإنه يبكي عند كل قبر يمر عليه خلال رحلته، لأنه يذَّكره بأخيه، وقد عاش حالة من الحزن، وجاءت دلالة لفظة القبر لتحمل معاني الهجر والفراق، ويتضح في هذا النص مقدار الضغط النفسي والدلالي على متمم، فالشاعر هنا يريد اثبات الذات التي تعاني من مرارة الفقد والحرقة والفراق وقساوة الذكرى على أخيه، التي ارتبطت بدلالة معنى القبر، فأصبح رمزاً للحسرة، وعلى عدم تمكنه من رؤية أخيه تحت أطباق الثرى مرَّة أخرى، فإن أسلوب الحوار والتعجب منه بالبكاء على كل قبر يصادفه فإن هذه المقطوعة مفعمة عناصرها التي يستوحيها الشاعر للتعبير عن مشاعره الرقيقة وعواطفه الحارة وأحاسيسه الدافقة أتجاه أخية مالك فنتيجة لما يملؤه من تشاؤم فقد أستمالت الأرض كلها الى دار الألم والعذاب ، فهذا يدل دلالة قاطعة على انه يمر بالمعاناة الشديدة إزاء فقدانه، فحديثه نابع من إحساس صادق، فإنَّ الحوار (قال، فقلت) ((يكشف عن الأحاسيس الداخلية ورفع الحجب عن عواطفها اتجاه ما يمر به)) (أ.د. محمد سعيد حسين مرعي، 2007م، ص76).

ففي بداية هذا النص يقف على القبور وكيف شعر بحالة الحزن، ويذرف الدموع، حيث انعكس على نفسية متمم، فالتوتر والحزن جعل الشاعر يتفنن في رسم أحداث النص، فيكشف عن ملكته الشعرية التي عمل على تصوير الواقع أكثر من التصوير الفني، أمَّا في البيت الثاني فإنه يحمل دلالة المكان المعادي بصورة أكثر وضوحاً من خلال كلمة (الملأ)، ويقصد بها كل قبر على هذه الأرض الذي يحزن عليه لمجرد النظر إلى مكان هذه القبور، وقد كان القبر ((هاجساً في نفوس شعراء تلك الحقبة من الزمن وشغل بالهم وأدركوا النهاية الحتمية لكل إنسان، وذكروه في أشعارهم، مكاناً يطوي سجل الإنسان، ويشهد على نهايته، فكان مكاناً معادياً في نظرهم، يحبس أصوات الأهل والأحبة، ويغيبهم عن الأنظار، حاوروا

عبرةُ الدنيا، الدار، الزوال، واستنبطوا منه القبر، وألفوه محطة لرحلة الخلود إلى العالم الآخر)) (حمادة تركي زعيتر، 2013م، ص245).

وينطوي هذا النص على مجموعة من الدلالات المكانية، فهي (القبور، الملأ، اللوى، الدكادك)، فإن الشاعر متمم يستمد من هذه الأمكنة أحاسيسه وعواطفه الصادقة اتجاه أخيه، فمنح النص فكرة التغيب والفناء من خلال توظيف الحوار الخارجي الذي بني عله النص (لامني رفيقي ،يقول أتبكي ....، فقلت له...) في توضيح فلسفة الشاعر في النظر الى القبر ، فالقبر في ذاته لا يحمل قيمة له، لكن ما تضمنه القبر هو المقصود، فقد ضمَّ ثراه رجلاً طيباً، وأصبحت بقعته معلماً من معالم الأرض (ينظر: د.حسن أحمد، 1991م، ص145)، وظلَّ القبر بالنسبة للشاعر في عصر ما قبل الإسلام يُمثل مكاناً معادياً ومرعباً، لأن صورته لا تفارق أفكارهم، وتركيز الشاعر على صور القبر، فإنه دليل على قوَّة إحساسه بالموت.

وإن الشعراء في عصر ما قبل الإسلام أرادوا لقبور موتاهم الذين يحبونهم أن تبقى غضة ندية يكسوها العشب، وسقياها بماء المطر دلالة على الحياة الدائمة، وتظل محمية من الوصول إليها وطرية لا يتسلط عليها ما يزيل جدتها ونظارتها، فلهذا دعا متمم بالسقيا لكل (البلاد من الواديين، وجبال القريتين، الشارع)، فإنها كلها أماكن مفتوحة وأنه دعا بالسقيا لكل البلاد ليس لحبّها، وإنَّما لسقيا حبيبه أخيه.

وبقي القبر في الشعر العربي يُمثل كل معاني الفقد، ودلالاته كانت مترسخة في ذاكرة الشاعر في عصر ما قبل الإسلام، وقد ((ذكر الشعراء القبر ووصفوه بوصفه البيت الأخير الذي ينزل الإنسان والمصير الذي ينتهي إليه)) (ينظر: المرجع السابق، ص149)، لذلك فقد المكان ألفته، وقد أبدع الشاعر في وصف مشاعره بحزنه، لأن الموت قدر محتوم ولا فرار منه، يخضع له الإنسان مستسلماً مهما طال الدهر أو قصر.

ثانياً: الصحراء

كانت الصحراء الملهمة الأولى التي فجَّرت ينابيع الشعر على لسان الشاعر العربي القديم، ففوق رمالها المترامية عاش هذا الشاعر ليتغنى بها، ويغني لها، ويستمد منها عناصر خياله، ومقومات منها، كما عاش في أعماق صحرائه إنساناً متميزاً، عاشت الصحراء في أعماقه وحياً حسياً، وإلهاماً متجدداً ونبعاً ثراً بالأحلام والرؤى الزاخرة بالجمال والفتنة (ينظر: يوسف خليفة، 1990م، ص 54)، فقد أدركوا أهميتها لأنها تمد أسفارهم ورحلاتهم بتجارب عميقة، فلم يقتصر على شعرهم فقط، بل ظهر في انفعالاتهم

النفسية وتكوينهم الشخصي، فإن هؤلاء الشعراء أخذوا يستمدون أشعارهم من واقعهم من حالة الصدام الدائم في هذه الصحراء، فجاء شعرهم يمثل صورة جميلة وواقعية لتلك الصحراء التي شملت قدراتهم على التفاعل معها، فـ((طبيعة الصحراء كانت لها الأثر الواضح لحياة العرب في الجاهلية، فأصبح الغزو عنصراً رئيسياً للبقاء في دائرة الحياة الجاهلية، كما هو الدفاع عن النفس)) (ديادري محمد رشيد، 2016م، ص 50)، فكانت الصحراء((أمامه تفيض بكائنات روحية، لا أوَّل لها ولا آخر، وكان يرى في صورها هذه القوى الخفية، ممَّا دفعه إلى أن يقيم بين الأشياء علاقات التشبيه، فإذا هو يرى في بعض الأشياء صور أشياء أخرى، فيستعيرها لها وكأن كل شيء يقع تحت بصره مهما كان صامتاً أو جامداً، يحسُّ فيه الحياة والحركة، فظن أنه لا فرق بينه وبين الموجودات وظن أن للجماد حياة حقيقية تحل فيه أحياناً)) (د.نوري حمودي القيسي، 1970م، ص 235)، فقد كانت الصحراء عند شعراء طبقة المراثي تشكل فضاءً حياً، فقد منحت الشاعر مهمة التأويل والتفكير والتدبر، وقد حملت لديهم الصحراء دلالة العداء والوحشة، إذ إنها تُعدُّ وسيلة واسعة ونائية مقفرة.

وكانت الشاعرة الخنساء تستمد محفزاتها من موجودات المكان، فهي تهيد أحاسيسها ومشاعرها تجاه تلك الأماكن، فتتحول من صفة المكان الأليف إلى مكان آخر معادي ومرفوض، وذلك بسبب فقد أخيها معاوية، إذ تقول (أحمد بن يحيى، 1988م، ص 64-67):

وَقـولي إنَّ خَيـرَ بَنـي سُـلَيمٍ وَفارِسَـهُم بِصَـحراءِ العَقيـقِ

فَإِنَّـكِ وَالْبُكَـا بَـعْدَ ابْـنِ عَـمْرٍو لَكَالسَّارِي سِوَى وَضَحِ الطَّرِيقِ

فَـلَا وَاللـهِ مَـا سَلَّيْـتُ نَفْـسِي بِفَاحِشَـةٍ عَلِمْـتُ وَلَا عُقُـوقِ

أَلَا يَا لَـهْفَ نَفْسِي بَعْدَ عَيْشٍ لَـنَـا بِجَنُـوبِ دَرَّ فَـذِي نَـهِيـقِ

إن النص يكشف في طياته عن دلالات مكانية ونفسية، تكون لها مردودات سلبية، فهذه الأبيات تحمل عنصر الحزن والألم بعد مقتل أخيها معاوية بصحراء العقيق ودفنه فيها، وتظهر لنا الأبيات عن مدى حزنها وبكائها عليه (فَإِنَّكِ وَالْبُكَا بَعْدَ ابْنِ عَمْرٍو) أنها أفنت عمرها بالبكاء، وهنا تخاطب نفسها بأنها لو بكيت على غيره كالضال على الطريق الذي يسير بالليل على غير هدى، وقد وظَّفت الشاعرة (يَا لَهْفَ نَفْسِي) حرف النداء لتنادي بها نفسها، وتتفجع بعد ذلك بنوع من الآهات التي تكشفها النفس، وإن توظيفها للضمير المتكلِّم أكثر من مرَّة؛ لكي تجعل ((القارئ أكثر حضوراً وانجذاباً للنص)) (د.عبد الناصر هلال، 2006م، ص 171)، وتبيَّن لنا أنها تتلهف على ما فاتها وكيف كانوا يعيشون في رخاء العيش كان (دَرَّ فَذِي نَهِيقِ)، وهما قليبان لبني سليم يبقى الماء فيهما ماء الشتاء والربيع، فقد طوعت الشاعرة المكان المعادي تطويعاً رمزياً، يلتمس من خلاله حدَّة الألم النفسي الذي عاشته بعد وفاته، فالشاعرة تريد من الأماكن (بصحراء العقيق، الطريق، بجنوب در فذي نهيق)، أصبحت أماكن غير

مألوفة بعد مقتل أخيها، فأصبحت في جفاء وتتحسر على تلك الأيام التي كانت تعيش فيها برفاهية، إذ أصبحت الصحراء من بعده وما تنطوي عليه من البعد الهائل، ((فهي مجهول حافل بالخوف والاغتراب، وتعد مكاناً معادياً، لذا أخطر صفاته أن يعاديك المجهول الذي لا تعرفه)) (د.ناصر شاكر الأزدي، 2009م، ص 142)، فلا ريب أننا أمام نص شعري إبداعي حمل معه دلالات نفسية انفعالية ومكانية، فحملتها السياق الشعري التي تجمع فيها الشاعرة جزئيات عملها، وتصويرها الابداعي للنص الشعري، لتبلغ درجة عالية من الإبداع والتأثير في نفس المتلقي، وتحرّيك النص في إطار مجموعة من الدلالات الواقعية والرمزية التي تتأرجح بين طرفي ثنائية (الذات والآخر)، و(المكان والزمان).

الخاتمة

1. إنَّ للمكان عند شعراء طبقة المراثي لهم خصوصيتهم، إذ وظفوها كأحد عناصر الكشف عن الواقع المحيط بهم.

2. كان لدلالة المكان الطبيعي حضوراً واسعاً في أشعار أصحاب المراثي، فكانت بعض الأمكنة الطبيعية تحمل صفة الألفة وملجأ الأمان والاستقرار، بينما هناك أمكنة أخرى طبيعية حملت صفة الوحشية والعداء والرفض وعدم الرضا.

3. استطاعت المخيلة الشعرية لدى الشعراء ،أن تثير لدى المتلقي حساسية خاصة في استشعار دلالة المكان عبر تعدد مستويات الدلالية اللفظية فكانت هذه الدلالة تعطي قدراً من الاهتمام بالمعاني المحددة ضمن سياق النص الشعري ، وتساعدها في ذلك الدلالة المعجمية .

4. يعتمد الشعراء في تشكيل الثنائيات المكانية على عنصرين ولا يمكن اغفالها وهي طبيعة الشعور اتجاه المكان واللغة ، فالذات مثلاً تشعر بالضيق والاختناق في بعض الأمكنة وتشعر بالارتياح في الأمكنة ذاتها بحسب موقف الذات منها، كما يتضح المكان من خلال طريقة الشعراء في استخدام اللغة فإنهم يستخدمون الصورة والسرد والوصف لخلق فضاءات الأمكنة المختلفة.

Sources and references

- Pre-Islamic Literature: Its Issues, Arts and Texts, Hassan Abdel-Jalil Youssef, Al-Mukhtar Publishing and Distribution Foundation, Cairo-Egypt, 1st edition, 2001 AD.
- Intimacy in Arabic poetry until the end of the Umayyad era, (PhD thesis), Maitham Ali Al-Abad, under the supervision of Prof. Dr. Fayez Taha Al-Omar, College of Education, Tikrit University, 2012 AD.
- Narrative mechanisms in contemporary Arabic poetry: Dr. Abdel Nasser Hilal, Center for Arab Civilization, Cairo, 1st edition, 2006 AD.
- The structure of discourse in the Palestinian women's novel 1950-2000 AD, a critical study, Hafiza Ahmed, Ugarit Cultural Center Consultations, Ramallah, 1st edition, 2007 AD.
- Semiotic Analysis of Discourse (A Reading of the Tales of Kalila and Dimna by Ibn Al-Muqaffa), Dr. Nasser Shaker Al-Azdi, Dar Al-Sayyab for Printing, Publishing and Distribution, Iraq, 1st edition, 2009 AD.
- The Tragedy of Death in Contemporary Arabic Poetry, Dr. Abdel Nasser Hilal, Center for Arab Civilization, Cairo, 1st edition.
- The aesthetic formation of place and its artistic construction in modern Arabic poetry 1994-2000 AD, Yasser Fadl Saleh Al-Amiri, Nour Houran, Damascus, 1st edition, 2019 AD.
- The Development of the Modern Arabic Novel in Egypt, Abdul Mohsen Taha Badr, Dar Al-Maaref, 3rd edition, 1938 AD.
- Aesthetics of Place in the Hanamina Trilogy, Mahdi Al-Obaidi, Publications of the Syrian General Book Authority, Ministry of Culture, Damascus, 2011 AD
- Aesthetics of place in the collection "Do not apologize for what you did": Muhammad Abu Hamida Darwish, An-Najah University Research Journal, Azza, Volume 22, 2008 AD.
- Aesthetics of place in the stories of Saeed Houraniya, publications of the Syrian General Book Authority, Ministry of Culture, Damascus, 2011 AD, d.
- Aesthetics of Place, Gaston Bachelard, edited by: Ghaleb Hilsa, University Foundation for Studies, Publishing and Distribution, Beirut, Lebanon, 2nd edition, 1984 AD.
- Dialogue in ancient Arabic poetry, the poetry of Imru' al-Qais as an example, A. Dr.. Muhammad Saeed Hussein Mar'i, Tikrit University Journal of Human Sciences, No. 3, Volume 4, 2007 AD.
- The significance of place in the cities of salt, Abdul Rahman Munif, Al-Yarmouk Magazine, vol. 9, no. 2, 1991 AD.
- Diwan A'sha Bahila, Professor Dr. Nasra Ahmad Jado' Al-Zubaidi, The Modern World of Books, Jordan, 1st edition, 2018 AD.
- Diwan al-Khansa', explained by Tha'lab Abu al-Abbas, Ahmad bin Yahya bin Sayyar al-Shaybani al-Nahwi (d. 291 AH), edited by Dr. Anwar Sweilem, Dar Ammar, Jordan, 1st edition, 1988 AD.

- Diwan Ka'b bin Saad Al-Ghanawi, compiled, edited and studied by Dr. Abdul Rahman Muhammad Al-Wasifi, Cairo Library of Arts, 1st edition, 1998 AD.
- Dhul-Rumah, Poet of Love and Desert, Youssef Khalifa, Youssef Khalifa, Dar Gharib for Printing, Publishing and Distribution, 1990 AD.
- The Novel and the Place, Yassin al-Nusair, House of General Cultural Affairs, Baghdad, 1986 AD, D.I., D.T.
- Time and place in pre-Islamic poetry, Dr. Badis Foghali, The Modern World of Books, 1st edition, 2007 AD.
- Pre-Islamic Poetry, Dr. Shawqi Deif, Dar Al-Maaref, Cairo, 13th edition, 1990 AD.
- Nature Poetry in Arabic Literature, Dr. Sayyed Nofal, Misr Press, Cairo, ed., 1945 AD.
- Poetry of standing on ruins in pre-Islamic times until the end of the third century, Dr. Azza Hassan, Al-Taraq Press, Damascus, Syria, 1968 AD.
- The Poetics of Space and Time, Hafez Muhammad Jamal al-Din, Alamat fi Criticism Magazine, Cultural Club, Jeddah, vol. 52, Rabi` al-Akhir 1425 AH - June.
- Nature in pre-Islamic poetry, Dr. Nouri Hamoudi Al-Qaisi, Dar Al-Irshad, Beirut, 1st edition, 1970 AD.
- The effectiveness of place in the poetic image, Saifiyat Al-Mutanabbi as a model, M.D. Ali Miteb Jassim and Dr. Mona Shafiq Tawfiq, Diyala Magazine, Iraq, No. 4, 2009 AD.
- The narrative space in Jabra's literature, Ibrahim Jabra, Dr. Ibrahim Jandari, Damascus, 1st edition, 2003 AD.
- On Andalusian Literature, Jawdat Al-Rikabi, Dar Al-Maaref in Egypt, Cairo, 2nd edition, 1966 AD.
- The reader and the text, the sign and the signifier, Siza Qassem, Egyptian General Book Authority, Cairo, 1st edition, 2013 AD.
- Death anxiety, Dr. Ahmed Muhammad Abdel Khaleq, World of Knowledge Series, ed., Kuwait, 1987 AD.
- Malik and Tammam Ibn Nuwayra al-Yarbu'i, written by Ibtisam Marhoon al-Saffar, Al-Irshad Press, Baghdad, 1968.
- The Problem of Artistic Place, Yuri Lotman, criticism and translation by Siza Qasim, Alef Rhetoric and Comparison Magazine, issue 6, 1968 AD.
- Meanings of chivalry in pre-Islamic poetry, Diadri Muhammad Rashid, Dar Ghaida for Publishing and Distribution, Amman, 1st edition, 2016 AD.
- Introduction to the Arabic Poem in Pre-Islamic Poetry, Hussein Atwan, Dar Al-Maaref, Egypt, 1970 AD.
- Place as a narrative aspect in the poetry of Ibn al-Rumi, Ahmed Salem Obaid, Journal of the College of Basic Education for the Human Sciences, University of Karbala, No. 38, 2018 AD.
- Death in pre-Islamic poetry, Dr. Hassan Ahmed Abdel Hamid Abdel Salam, Al-Hassan Islamic Press, Cairo, 1st edition, 1991 AD.